

سلسلة الأعلام

الفا تحون

تأليف: محمد عبد الظاهر المطارقي

رسوم: عطية الزهيرى

جرافيك: محمد جمال



جميع حقوق الطبع محفوظة

١١ شارع الطوبجى - بين السرايات - الجيزة

تليفاكس: ٧٤٩٣٦٨٥

Site : www.ynabeea.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا

مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ

مَنْ قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ

يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا

تَبْدِيلًا

الْفَاتِحُونَ

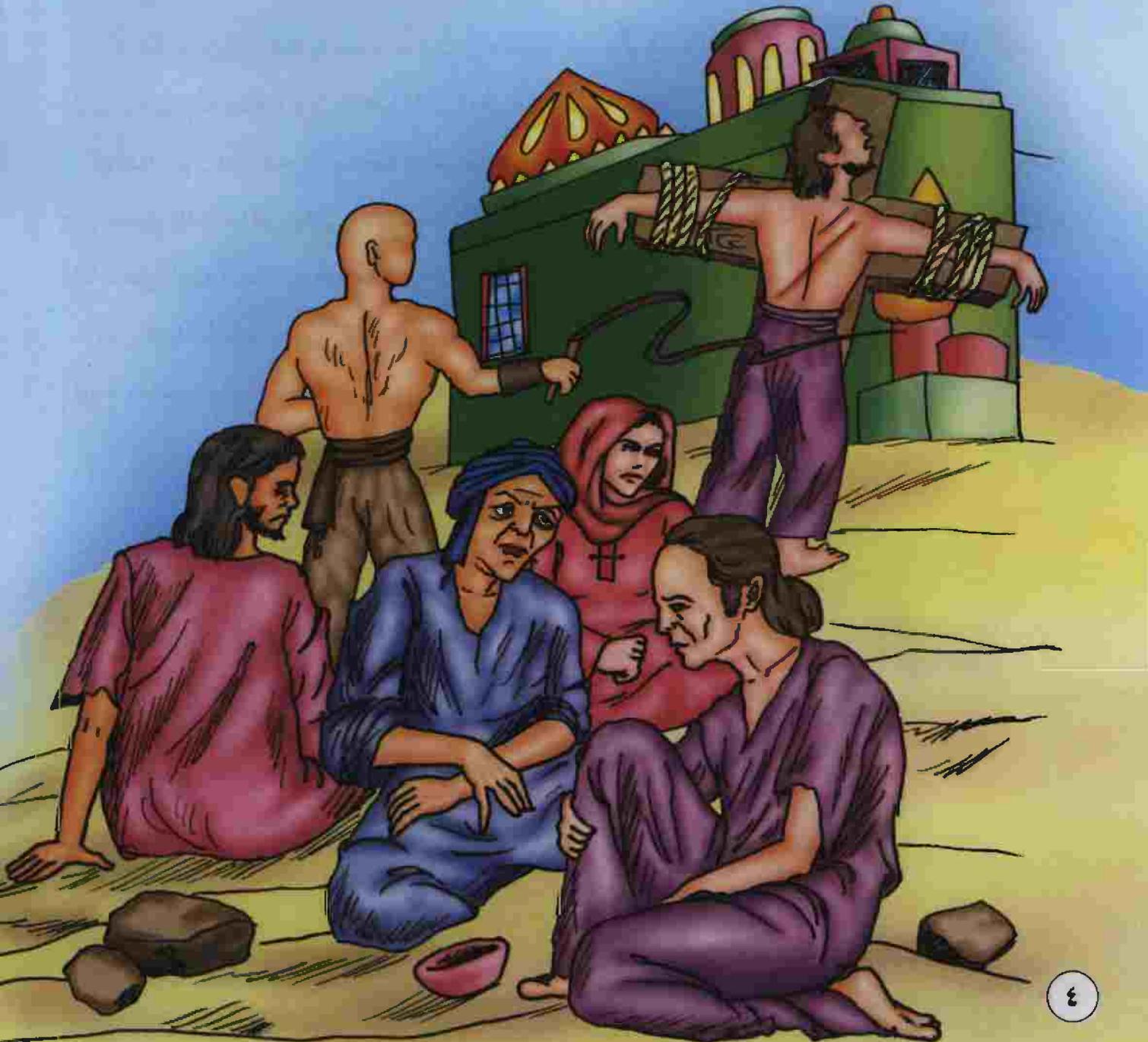
الْفَاتِحُونَ هُمْ مَنْ قَامُوا بِنَشْرِ الْإِسْلَامِ فِي رُبُوعِ الْأَرْضِ؛ عَمَلًا بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٠٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١١٠].
وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ قَامَ بِالْفَتْحِ لَهُ فَضْلٌ عَظِيمٌ؛ يَسْتَوِي فِي ذَلِكَ الْجُنْدِيُّ وَالْقَائِدُ، قَالَ ﷺ:
"لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ".

وَالْفَاتِحُونَ لَهُمْ مَنْزِلَةٌ خَاصَّةٌ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ، وَالْفَضْلُ يَرْجِعُ إِلَى مَا بَدَلُوهُ مِنْ جِهَادٍ وَتَضْحِيحَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِلَى الْأَوْقَاتِ وَالْأَزْمِنَةِ الَّتِي قَضَوْهَا فِي التَّخْطِيطِ وَالِدِّرَاسَةِ وَالْحُرُوبِ وَالْأَسْفَارِ وَالْمُفَاوِضَاتِ وَغَيْرِهَا مِنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ حَتَّى دَانَتْ لَهُمُ الْبِلَادُ.
وَفِي هَذَا الْكِتَابِ اخْتَرْنَا لَكَ أَيُّهَا الصَّدِيقُ سِيرَةَ خُمْسٍ مِنْ عِظَامِ الْفَاتِحِينَ، لَعَلَّكَ تَطَّلِعُ عَلَى تَارِيخٍ وَتَضْحِيحَةٍ فَتَسْتَفِيدُ مِنْهَا فِي حَيَاتِكَ.

فاتح الأندلس طارق بن زياد

لَمْ يَكُنِ الْكُونْتُ "يُولِيَانُ" - حَاكِمُ سَبْتَةَ - هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَبْغُضُ "لذَّرِيقَ" - مَلِكَ الْقُوطِ -
فَغَالِبِيَّةُ الشَّعْبِ الْأَسْبَانِيِّ كَانَ يَمَقُّتُ هَذَا الْمَلِكَ، وَيَتَمَنَّى الْخَلَاصَ مِنْهُ بِأَيَّةِ صُورَةٍ؛ وَذَلِكَ
لَطُغْيَانِهِ الزَّائِدَ عَنِ الْحَدِّ، وَظُلْمِهِ. وَلَا غَرُورًا فَإِنَّ "لذَّرِيقَ" لَمْ يَكُنْ يَهْتَمُّ سِوَى بِشْئُونِهِ الْخَاصَّةِ
فَقَطُّ، وَكَانَ يَنْظُرُ إِلَى جَمِيعِ طَوَائِفِ الشَّعْبِ بِاعْتِبَارٍ أَنَّهُمْ خَدَمٌ وَعَبِيدٌ، عَلَيْهِمْ فَقَطُّ أَنْ يَلْبُوا
أَوْامِرَهُ، وَيُحَقِّقُوا لَهُ رَغْبَاتِهِ.



أَمَّا الْمُقْرَبُونَ جِدًّا مِنْهُ، فَكَانُوا يُمَارِسُونَ هُمْ أَيْضًا سُلْطَتَهُمْ عَلَى الشَّعْبِ دُونَ أَدْنَى رَحْمَةٍ. وَعَلَى الرَّعْمِ مِنْ قَسْوَةِ "لذْرِيْقٍ" وَبِطَانَتِهِ، إِلَّا أَنَّ الثُّوَارَ مِنْ أَبْنَاءِ الشَّعْبِ كَانُوا يَخْرُجُونَ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ يُطَالِبُونَ بِإِسْقَاطِهِ، وَكَانَ الْمَلِكُ يُرْسِلُ بِجُنُودِهِ إِلَى هُنَا وَهُنَاكَ لِيَقْضِيَ عَلَى هَذِهِ الثُّورَةِ أَوْ تِلْكَ، مُسْتَخْدِمًا الْأَسْلِحَةَ الْفِتَاكَةَ!

نَعَمْ، كَانَ عَرْشُ "لذْرِيْقٍ" عَلَى فَمِ بُرْكَانٍ يَفُورُ وَيَغْلِي، وَتَمَزَّقَتْ إِسْبَانِيَا، وَصَارَتْ شَيْعًا وَأَحْزَابًا، كُلُّ مِنْهُمْ يَزْنُو إِلَى الْعَرْشِ بِطَمَعٍ، وَيَنْتَظِرُ اللَّحْظَةَ الْمُنَاسِبَةَ لِلتَّخْلُصِ مِنَ الطَّاعِيَةِ وَالْجُلُوسِ مَكَانَهُ. كَانَ "يُولِيَانُ" - حَاكِمُ سَبْتَةِ - نَاقِمًا عَلَى لذْرِيْقٍ أَشَدَّ النَّقْمَةِ، فَقَدْ أَخَذَ الْعَهْدَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنَ الطَّاعِيَةِ، وَيُرِيحَ الشَّعْبَ مِنْ ظُلْمِهِ.

وَكَانَ يُولِيَانُ يَعْلَمُ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَرِيبُونَ جِدًّا مِنْهُ، فَقَدْ اسْتَطَاعُوا أَنْ يَفْتَحُوا بِلَادَ الْمَغْرِبِ وَمُعْظَمَ قَارَةَ أَفْرِيْقِيَا، وَصَارُوا عَلَى مَزْمَى حَجَرِ مِنْهُ، إِلَّا أَنَّ مَوْقِعَ سَبْتَةِ الْمَنِيْعِ، وَمُجَالِدَةَ رِجَالِهَا الشُّجْعَانَ، وَيَقْظَةَ حَامِيَّتِهَا، قَدْ حَالَ دُونَ فَتْحِهَا.

تَقَدَّمَ يُولِيَانُ بِخُطَى ثَابِتَةٍ نَحْوَ مَوْقِعِ الْمُسْلِمِينَ لِيَطْلُبَ مِنْهُمْ غَزْوَ بِلَادِ الْإِسْبَانِ، وَالْإِنْتِقَامَ مِنْ لذْرِيْقٍ الْمَجْرِمِ وَأَعْوَانِهِ، وَمَنَّاهُمْ بِالنَّعِيمِ وَالْخَيْرِ الْكَثِيرِ.

لَمَّا عَلِمَ "مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ" - حَاكِمُ أَفْرِيْقِيَا - بِرَغْبَةِ "يُولِيَانِ" الْجَامِحَةِ، اهْتَزَّ قَلْبُهُ فَرَحًا، فَهَا هُوَ يَنْتَظِرُ مُنْذُ زَمَنِ الْفُرْصَةِ لِكَيْ يَغْزُوَ تِلْكَ الْبِلَادَ، وَيَنْشُرَ فِيهَا الْإِسْلَامَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُ أَبَدًا أَنْ تَأْتِيَ إِلَيْهِ هَكَذَا عَلَى جَنَاحِ السَّرْعَةِ، لَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَبِيْتُ فِي الْأَمْرِ إِلَّا بَعْدَ رُجُوعِهِ إِلَى خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ "الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ"، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ أَرْسَلَ الْأَعْيُنَ؛ لِتَجْمَعَ لَهُ الْأَخْبَارَ، حَتَّى يَتَأَكَّدَ مِنْ صِدْقِ يُولِيَانِ؛ خَشِيَةَ أَنْ يُغَرَّرَ بِجِيُوشِ الْمُسْلِمِينَ.

وَوَافِقَ الْخَلِيفَةَ الْأُمَوِيَّ، شَرِيْطَةَ أَنْ يَأْخُذُوا كُلَّ الْاِحْتِيَاطَاتِ الْكَافِيَةِ لِسَلَامَةِ الْجَيْشِ الْمُسْلِمِ. فَكَّرَ "مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ" فِيمَنْ يَصْلُحُ لِتِلْكَ الْمَهْمَةِ. هَزَّ رَأْسَهُ مُبْتَسِمًا، فَقَدْ عَثَرَ عَلَيْهِ، وَهَلْ هُنَاكَ غَيْرُهُ؟ إِنَّهُ الْبَطْلُ الْهُمَامُ الَّذِي أَثْبَتَ جِدَارَتَهُ فِي جَمِيعِ الْمَهَامِ الْعَسْكَرِيَّةِ الَّتِي كُفِّ بِهَا، وَهُوَ بِجَانِبِ ذِكَايَةِ الْمُفْرِطِ، وَبُنْيَانِهِ الْقَوِيُّ الْعِمْلَاقِ، وَهَيْئَتِهِ الْحَسَنَةِ، كَانَ مُؤْمِنًا شَدِيدَ الْإِيمَانِ، حَافِظًا لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ وَهَدْيِهِ كُلِّهَا أَسْبَابَ جَعَلْتَهُ يَخْتَارُهُ وَالْيَا عَلَى طَنْجَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ، وَالَّتِي تُشْرِفُ عَلَى الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ، فَأَثْبَتَ جِدَارَتَهُ بِهَا.

نَعَمْ، كَانَ ذَلِكَ الْقَائِدُ الْبَارِعُ، هُوَ أَحَدَ الْقَامَاتِ الشَّامِخَةِ فِي تَارِيخِ الْفُتُوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَاسْتَطَاعَ أَنْ يَحْفَرَ اسْمَهُ بِقُوَّةٍ فِي سَمَاءِ الْأَبْطَالِ الشُّجْعَانِ، وَسَيَّرْتُهُ الْعَطْرَةَ لَا تَزَالُ تَتَرَدَّدُ فِي آذَانِ النَّارِيخِ.. إِنَّهُ "طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ".

لَمْ يَكُنْ طَارِقًا مِنْ أُصُولِ عَرَبِيَّةٍ، بَلْ كَانَ مِنَ الْبَرْبَرِ، مِنْ قَبِيلَةِ الصَّرْفِ، وَكَانَتْ مَضَارِبُ خِيَامِ هَذِهِ الْقَبِيلَةِ فِي جِبَالِ الْمَغْرِبِ الْعَالِيَةِ، وَهِيَ قَبِيلَةٌ شَدِيدَةُ الْبَأْسِ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، لَكِنَّ الْإِسْلَامَ وَصَلَ إِلَيْهِمْ فِي عَهْدِ الْخَلِيفَةِ "الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ"، حِينَ أَوْكَلَ إِلَى "مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ" بِمَهْمَةٍ فَتَحَهَا، وَاجْتَازَ بِنُ نُصَيْرٍ تِلْكَ الْبِلَادَ، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَبْسُطَ نَفُوذَ الْإِسْلَامِ عَلَى تِلْكَ الْمَنَاطِقِ الشَّامِخَةِ.

وَهَكَذَا قُدِّرَ لَطَارِقٍ أَنْ يُوَلَّدَ فِي بَيْتَةٍ مُسْلِمَةٍ، فَحَفِظَ الْقُرْآنَ صَغِيرًا، وَتَعَلَّمَ أُصُولَ الْفِقْهِ، وَكَانَ حُلْمُهُ الدَّائِمُ أَنْ يَحْمِلَ السَّيْفَ وَيُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَدْ كَانَ.

اطْمَأَنَّ "طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ" عَلَى صِدْقِ يُولِيَانِ، وَعَلِمَ أَنَّ الْأَنْدَلُسَ لَيْسَتْ مُتَمَاسِكَةً، وَأَنَّهَا قُصُورٌ فِي الْهَوَاءِ، عَلَى وَشِكِ السَّقُوطِ، وَأَنَّ الشُّعْبَ الْمَطْحُونِ يَنْتَظِرُ- بِالْفِعْلِ- لِحُظَّةِ الْخَلَاصِ مِنْ ذَلِكَ الطَّاعِيَةِ الْفَاسِدِ "لذَرِيْقَ"، فَاسْتَعَانَ "طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ" بِاللَّهِ، وَتَحَرَّكَ بِجَيْشِ قِوَامِهِ سَبْعَةَ آلَافِ جُنْدِيٍّ، مُعْظَمُهُمْ مِنَ الْبَرْبَرِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَبَّرَ مَضِيقَ الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ، وَتَجَمَّعَ الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ جَبَلِ صَخْرِيٍّ عُرِفَ فِيهَا بَعْدُ بِاسْمِ "جَبَلِ طَارِقٍ"، وَكَانَ ذَلِكَ فِي ٥ مِنْ شَهْرِ رَجَبِ ٩٢ هـ، ٢٧ مِنْ إِبْرَيْلِ ٧١١ م.



مَا أَنْ وَطَأَتْ أَقْدَامُ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ أَرْضَ الْأَنْدَلُسِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْجُنُودِ، حَتَّى وَضَعَ خُطَّةً مُحْكَمَةً، أَهْمَهَا انْتِزَاعُ الْقِلَاعِ وَالْحُصُونِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْبَحْرِ، وَجَعَلَهَا حَامِيَةً يَحْتَمِي بِهَا إِذَا اضْطُرَّ إِلَى الْإِنْسِحَابِ.

فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، كَانَ لَدْرِيْقُ مَشْغُولًا بِإِخْمَادِ بَعْضِ الثَّائِرِينَ عَلَيْهِ فِي الْجَنُوبِ، فَلَمَّا وَصَلَتْ أَنْبَاءُ الْفَتْحِ، وَاجْتِيَازِ الْمُسْلِمِينَ لِلْقُرَى وَالْمُدُنِ، أَسْرَعَ إِلَى طَلَيْطَلَةَ - عَاصِمَةِ بِلَادِهِ - وَرَاحَ يُعِدُّ الْعُدَّةَ، وَيُعْلِنُ حَالَةَ الْإِسْتِعْدَادِ الْقُصْوَى لِلْحَرْبِ.

كَانَ لَدْرِيْقُ مُطْمَئِنًّا مِنْ انْتِصَارِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّهُ اسْتَطَاعَ أَنْ يَجْمَعَ جَيْشًا هَائِلًا قِوَامُهُ أَكْثَرُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ جُنْدِيٍّ.

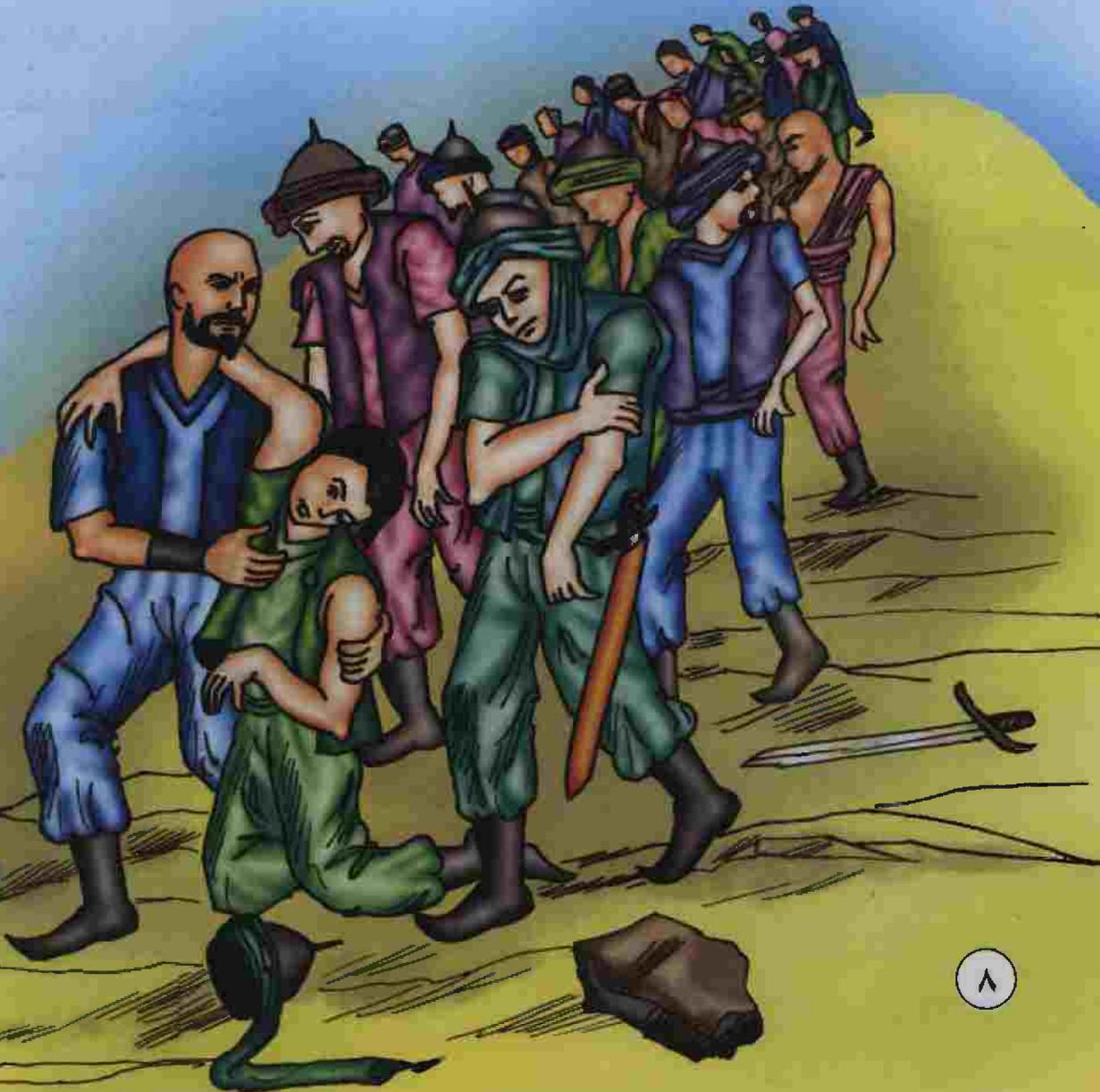
لَمَّا عَلِمَ طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ بِجِيُوشِ لَدْرِيْقِ، أَرْسَلَ فِي الْحَالِ إِلَى مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ يَسْتَنْجِدُ بِهِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنْ خَيْرَةِ الرِّجَالِ، فَصَارَ الْمُسْلِمُونَ اثْنِي عَشَرَ أَلْفًا.

تَوَجَّهَ لَدْرِيْقُ إِلَى بَلَدَةِ "شَدُونَةَ"، وَاتَّمَّ بِهَا اسْتِعْدَادَاتِهِ، ثُمَّ اتَّجَهَ إِلَى لِقَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْأَمَلُ يَخْدُوهُ بِالنَّصْرِ الْمُبِينِ.

التَقَى الْجَيْشَانِ، وَدَارَتْ مَعْرَكَةٌ شَرِسَةٌ بِالْقُرْبِ مِنْ شَدُونَةَ، وَكَانَ اللَّقَاءُ قَوِيًّا، وَقَدِ اسْتَطَاعَ الْمُسْلِمُونَ - بِفَضْلِ اللَّهِ - أَنْ يُلْحِقُوا بِجِيُوشِ الْقُوطِ هَزِيمَةً نَكْرَاءَ، وَسَقَطَ الطَّاغِيَةُ لَدْرِيْقُ عَلَى يَدِ الْبَطْلِ الصَّنْدِيدِ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ، وَكَانَتْ تِلْكَ بَدَايَةَ لِمَطْلَعِ شَمْسِ الْإِسْلَامِ عَلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ. لَمْ يَكْتَفِ طَارِقُ بِهَذَا الْإِنْتِصَارِ الْعَظِيمِ، بَلْ وَاصَلَ فُتُوحَاتِهِ حَتَّى اسْتَطَاعَ فِي نَفْسِ السَّنَةِ أَنْ يَفْتَحَ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، ثُمَّ فَتَحَهَا كَامِلَةً بِمُعَاوَنَةِ الْفَاتِحِ الْعَظِيمِ "مُوسَى ابْنِ نُصَيْرٍ".

أمير المسلمين يوسف بن تاشفين

كَانَ الْمُنَاخُ الْعَامُّ فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ سَيِّئًا لِلْغَايَةِ، بَلْ إِنَّهُ كَانَ يَزْدَادُ سُوءًا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ؛ فَبَعْدَ أَنْ كَانَتْ شَمْسُ الْإِسْلَامِ تَسْطَعُ بِقُوَّةٍ عَلَى كُلِّ أَنْحَاءِ الْبِلَادِ، وَتَحَقَّقَتْ فِيهَا حَالَاتٌ مِنَ التَّقَدُّمِ وَالْأَزْدِهَارِ عَلَى يَدِ مُلُوكِ أَقْوِيَاءٍ، كَعَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّاحِلِ، مُؤَسَّسِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ، وَالْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ، وَغَيْرِهِمْ، إِذَا بِهَا تَنْحِيدٌ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ لِتَصِيرَ مَرْتَعًا لِلْقَلَاقِلِ وَالْفِتَنِ، وَرَاحَتْ تَمُوجُ بِالْحُرُوبِ الدَّاخِلِيَّةِ، حَتَّى تَمَزَّقَتْ أَوْصَالُهَا، وَصَارَتْ أَشْلَاءَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ دَوْلَةً وَاحِدَةً، فَأَصْبَحَ هَذَا الْعَصْرُ الرَّدِيءُ يُسَمَّى عَصْرَ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ.



وَهَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ كَانُوا فِي الْأَسَاسِ وُلاةً، وَكَانَ مِنْهُمْ الْقِضَاةُ، فَلَمَّا ضَعُفَتِ الدَّوْلَةُ وَأَصَابَهَا
الْوَهْنُ، اقْتَطَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ جُزْءًا لِنَفْسِهِ، وَجَعَلَ نَفْسَهُ مَلِكًا عَلَيْهِ، وَتَسَمَّى بِالْقَابِ الْخُلَفَاءِ
مُعْتَقِدًا أَنَّ ذَلِكَ يَمْنَحُهُ الْمَهَابَةَ وَالْقُوَّةَ.

لَمْ يَتَوَقَّفِ الْأَمْرُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، لِأَنَّ الْأَطْمَاعَ الَّتِي مَلَأَتْ قُلُوبَهُمْ جَعَلَتْ كُلًّا مِنْهُمْ يَبْدُلُ
مَبْلَغَ جَهْدِهِ فِي إِلْحَاقِ الْخَرَابِ وَالدمَارِ بِجِيرَانِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَيُحَاوِلُ الاسْتِحْوَاذَ عَلَى أَجْزَاءِ
أُخْرَى مِنَ الْمَدِينِ لِيَضُمَّهَا إِلَى مَلِكِهِ؛ فَصَارَتْ نِيرَانُ الْحَرْبِ تَشْتَعِلُ هُنَا وَهُنَاكَ، وَأَصْبَحَ كُلُّ مِنْهُمْ
يَتَوَجَّسُ مِنَ الْآخَرِ خَيْفَةً.

وَالآنَ كَى مِنْ ذَلِكَ هُوَ لُجُوءُ الْبَعْضِ مِنْهُمْ إِلَى أَخْضَانِ النَّصَارَى مِنْ دُولِ أَوْرُوبَا، يُقَدِّمُونَ
إِلَيْهِمُ الْهَدَايَا النَّفِيسَةَ، وَيَعْقِدُونَ مَعَهُمْ عُهُودًا وَأَخْلَافًا ضِدَّ إِخْوَانِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

لَمَّا حَدَقَتْ أَعْيُنُ النَّصَارَى، وَرَأَتْ مَا حَاقَ بِبِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالتَّشَرُّدِ، أَسْعَدَهَا ذَلِكَ
كَثِيرًا، فَقَدْ أَحْسَوْا أَنَّ الْوَقْتَ قَدْ حَانَ، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَتَحَرَّكُوا لِلْهُجُومِ عَلَى ذَلِكَ الْجَسَدِ الْمُتَزَقِّ
فَرَاخُوا يَدْعُونَ أَنْفُسَهُمْ لِلْوُقُوفِ صَفًا وَاحِدًا، مِنْ أَجْلِ مُحَارَبَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَاسْتِرْدَادِ دَوْلَةِ الْأَنْدَلُسِ.
كَانَ النَّصَارَى يَحْلُمُونَ بِذَلِكَ الْيَوْمِ، فَعَادَ الْأَمَلُ مُجَدِّدًا إِلَى نُفُوسِ الْأَعْدَاءِ، فَقَالُوا: هَا هِيَ
الْفُرْصَةُ صَارَتْ سَانِحَةً، وَعَلَيْنَا أَنْ نَسْتَعْلِمَهَا، فَلْنَحْمِلِ الصَّلِيبَ - شَعَارَتَنَا الْمُقَدَّسَ - وَلْنَجْعَلَهَا حَرْبًا
ضُرُوسًا نَسْحَقُ فِيهَا هَامَةَ الْإِسْلَامِ.

وَبِالْفِعْلِ، تَقَدَّمَ مَلِكُهُمْ "الْفُونْسُو السَّادِسُ" وَمِنْ خَلْفِهِ جُيُوشُ النَّصَارَى، وَهَجَمُوا بِكُلِّ شَرَّاسَةٍ
وَعُنْفٍ عَلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، وَاسْتَطَاعَ اللَّعِينُ الْفُونْسُو أَنْ يُلْحِقَ بِالْمُسْلِمِينَ هَزِيمَةً مُنْكَرَةً، وَيَسْتَوْلِيَ
عَلَى "طَلَيْطَلَةَ"، وَيَرْفَعَ عَلَيْهَا الصُّلْبَانَ.

أَزْدَادُ النَّصَارَى أَمَلًا فِي اخْتِرَاقِ بَقِيَّةِ الْبِلَادِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِمَّا حَدَثَ، فَإِنَّ أَحَدًا مِنْ مُلُوكِ
الطَّوَائِفِ لَمْ يُحَرِّكْ سَاكِنًا، وَغَرِقُوا حَتَّى آذَانِهِمْ فِي الْمَلْدَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، وَكَانَ الْأَمْرُ لَا يَعْنِيهِمْ
بَلْ إِنَّ الْبَعْضَ مِنْهُمْ كَانَ يَلْجَأُ إِلَى الْفُونْسُو - مَلِكِ النَّصَارَى - بِكُلِّ خِيسَةٍ وَنَدَالَةٍ، لِيَتَعَاقُونَ مَعَهُ
ضِدَّ إِخْوَانِهِ فِي الْعَقِيدَةِ، ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ أَجْدَى لَهُ وَأَفْضَلُ لِتَأْمِينِ مَلِكِهِ، مُقَدِّمًا الْمَالَ الطَّائِلَ
وَالْهَدَايَا النَّفِيسَةَ لِلْمَلِكِ النَّصَارَى.

اسْتَطَاعَ الْفُونَسُو السَّادِسُ أَنْ يَحْتَلَّ "طَلَيْطَلَةَ" عَامَ ٤٧٨هـ - ١٠٨٥م، ثُمَّ مَدِينَةَ "قُورِيَةَ"، وَوَصَلَ إِلَى ضَوَاحِي "إِشْبِيلِيَّةَ"، وَحَاصَرَ قَلْعَةَ سَرْقِطَةَ الْحَصِينَةَ، وَأَخَذَ يَحْتَلُّ مُدُنَ الْإِسْلَامِ الْوَاحِدَةَ تَلَوُ الْأُخْرَى، وَأَهْمُهَا طَرْكُونَةُ، وَبِرَاغَةُ، وَقَلَمْرُويَّةُ، وَمَجْرِيطُ.

وَالْحَقُّ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ حَاوَلُوا مُقَاوَمَتَهُمْ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا الصُّمُودَ طَوِيلًا أَمَامَ ضَرَبَاتِ النَّصَارَى الْمُتَوَالِيَةِ. عَمَّتِ الْبِلَادَ حَالَاتٌ مِنَ الْخَوْفِ وَالْقَلَقِ عَلَى مَصِيرِهِمْ وَمَصِيرِ الْإِسْلَامِ، وَأَنْتَقَلَ ذَلِكَ الْإِحْسَاسُ إِلَى كِبَارِ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ، حِينَ تَنَبَّهُوا مِنْ سُبَاتِهِمُ الْعَمِيقِ، لِيَجِدُوا أَنْفُسَهُمْ دَاخِلَ مِنتَقَةِ خَطِرَةٍ، وَالْهَلَاكُ مُحْدِقٌ بِهِمْ، وَصَارَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى مِنْهُمْ.

هُنَا فَقَطُ تَنَاسَوْا أَطْمَاعَهُمْ، وَحَاوَلُوا أَنْ يُلْمَلِمُوا صُفُوفَهُمْ وَيَجْمَعُوا شَمْلَهُمْ. فَاجْتَمَعُوا عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ اسْتِدْعَاؤُهُمْ لِأَحَدِ الْقَادَةِ الْعِظَامِ، إِنَّهُ الْبَطْلُ الصَّنِيدُ الْمُؤْمِنُ يُوسُفُ بْنُ تَاشَفِينِ، أَمِيرُ الْمَغْرِبِ، وَالْقَائِدُ الْعَامُّ لِحَيُوشِ الْمُرَابِطِينَ.

هُوَ: "يُوسُفُ بْنُ تَاشَفِينِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ اللَّمْتُونِيِّ الصَّنَهَاجِيِّ"، وَهُوَ مِنْ قَبِيلَةِ قَوِيَّةٍ، وَكَانَتْ لَهَا السِّيَادَةُ وَالْقِيَادَةُ عَلَى الْقَبَائِلِ الْأُخْرَى. وَهَذَا مَا كَانَ لَهُ أُلْبَغُ الْأَثَرِ عَلَى طُفُولَتِهِ وَحَيَاتِهِ، فَقَدْ نَشَأَ عَزِيزًا كَرِيمًا، أَخَذَ الْعِلْمَ الشَّرْعِيَّ مِنْ فَمِ الْإِمَامِ الْفَقِيهِ ابْنِ يَاسِينَ، وَتَرَبَّى عَلَى حُبِّ الْجِهَادِ، فَضَلًّا عَنْ صِفَاتِهِ النَّبِيلَةِ الَّتِي طُبِعَ عَلَيْهَا، كَالشَّجَاعَةِ، وَالْمُرُوءَةِ، وَالكَرَمِ، وَإِغَاثَةِ الْمَلْهُوفِ، وَنُصْرَةِ الْمَظْلُومِ، وَمُسَانَدَةِ الضَّعِيفِ، إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا.

وَلَقَدْ مَرَّ "يُوسُفُ" بِتَجَارِبَ عَدِيدَةٍ أَثْقَلَتْهُ وَحَنَكْتُهُ، وَأَظْهَرَتْ مَوَاهِبَهُ الْكَامِنَةَ، فَظَهَرَ اسْمُهُ، وَتَأَلَّقَ نَجْمُهُ، لِيَصِيرَ قَائِدًا لِحَيُوشِ الْمُرَابِطِينَ فِي مَعْرَكَةِ الْوَاحَاتِ ٤٤٨ هـ - ١٠٥٦م.

اسْتَطَاعَ أَنْ يَفْتَحَ مَدِينَةَ "سَجْلَمَاسَةَ"، وَيَتَوَلَّى أَمْرَهَا بِأَمْرِ مِنَ الْأَمِيرِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عُمَرَ، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَقْضِيَ عَلَى الْفِرْقِ الضَّالَّةِ، وَيَضُمَّ غَالِبِيَّتَهُمْ إِلَى صُفُوفِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

لَمَّا بَلَغَتْ "يُوسُفُ بْنُ تَاشَفِينِ" الْأَحْوَالَ الْمَتَرَدِيَّةَ فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، لَمْ يَتَوَانَ فِي النَّجْدَةِ، فَقَدْ تَحَرَّكَ بِحَيُوشِهِ الْقَوِيَّةِ الْمُؤْمِنَةِ، وَأَنْتَقَلُوا عَبْرَ الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ، لِيَتَفَاجِئَ "الْفُونَسُو" بِجُنُودِ شُجْعَانَ، لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ الْمَوْتِ أَوْ النَّصْرِ.

وَاسْتَطَاعَ يُوسُفُ بْنُ تَاشَفِينِ بِخُطَطِهِ الْعَبْقَرِيَّةِ، وَبِحَيُوشِ الْمُرَابِطِينَ مِنْ وَرَائِهِ، أَنْ يُلْحِقَ بِمَلِكِ النَّصَارَى هَزِيمَةً سَاحِقَةً، وَعُرِفَتْ هَذِهِ الْمَعْرَكَةُ الْمُبَارَكَةُ بِاسْمِ "مَعْرَكَةِ الزَّلَاقَةِ"، وَكَانَ ذَلِكَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ ١٢ رَجَبٍ ٤٧٩ هـ، ٢٣ أَكْتُوبَرِ ١٠٨٦م.

وَقَدْ أَثْبَتَ جَيْشُ الْمُرَابِطِيِّينَ أَنَّهُ أَهْلٌ لِلجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَلَمَّا تَمَّ لَهُمْ مَا أَرَادُوا، عَادُوا إِلَى الْمَغْرِبِ دُونَ أَنْ يُفَكَّرَ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي نَيْلِ مَكْسَبٍ مِنْ تِلْكَ الْغَنَائِمِ الْهَائِلَةِ الَّتِي تَحَقَّقَتْ عَلَى أَيْدِيهِمْ. لَقَدْ كَانَ هَدَفُهُمْ اسْتِعَادَةَ أَرْضِ الْإِسْلَامِ، أَمَّا الْغَنَائِمُ فَقَدْ تَرَكَوْهَا كُلَّهَا لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ! وَلَمَّا تَكَرَّرَ تَخَاذُلُ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ، لَمْ يَجِدْ ابْنُ تَاشَفِينِ فِي النِّهَايَةِ غَيْرَ وَسِيلَةٍ وَاحِدَةٍ لِحِفْظِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، فَبَعْدَ تَشَاوُرِهِ مَعَ الْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ، تَوَصَّلُوا إِلَى غَايَةِ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ أَنْ يَضُمَّ ابْنُ تَاشَفِينِ جَمِيعَ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ لِتَكُونَ تَحْتَ سَيْطَرَتِهِ، يَحْكُمُهَا رِجَالٌ صَادِقُونَ، يَدِينُونَ لَهُ بِالطَّاعَةِ وَالْوَلَاءِ، وَيَكُونُ هَمُّهُمْ الْأَوَّلُ هُوَ حِفْظُ أَرْضِ الْإِسْلَامِ، وَالِدِفَاعُ عَنْهَا ضِدَّ أَيِّ مُعْتَدٍ.

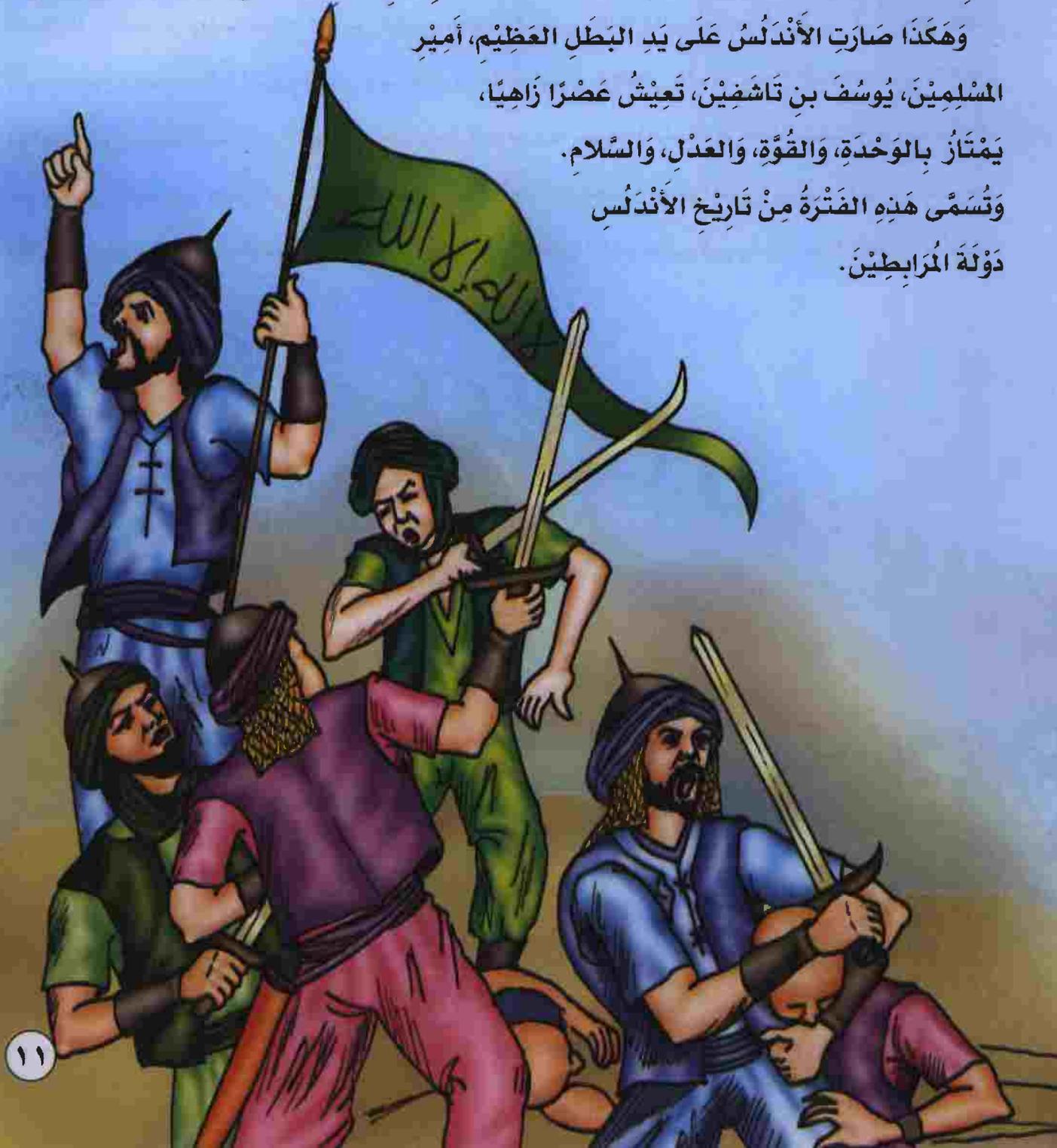
وَهَكَذَا صَارَتِ الْأَنْدَلُسُ عَلَى يَدِ الْبَطَلِ الْعَظِيمِ، أَمِيرِ

الْمُسْلِمِينَ، يُوسُفَ بْنِ تَاشَفِينِ، تَعِيَشُ عَضْرًا زَاهِيًا،

يَمْتَأَزُ بِالْوَحْدَةِ، وَالقُوَّةِ، وَالْعَدْلِ، وَالسَّلَامِ.

وَتُسَمَّى هَذِهِ الْفِتْرَةُ مِنْ تَارِيخِ الْأَنْدَلُسِ

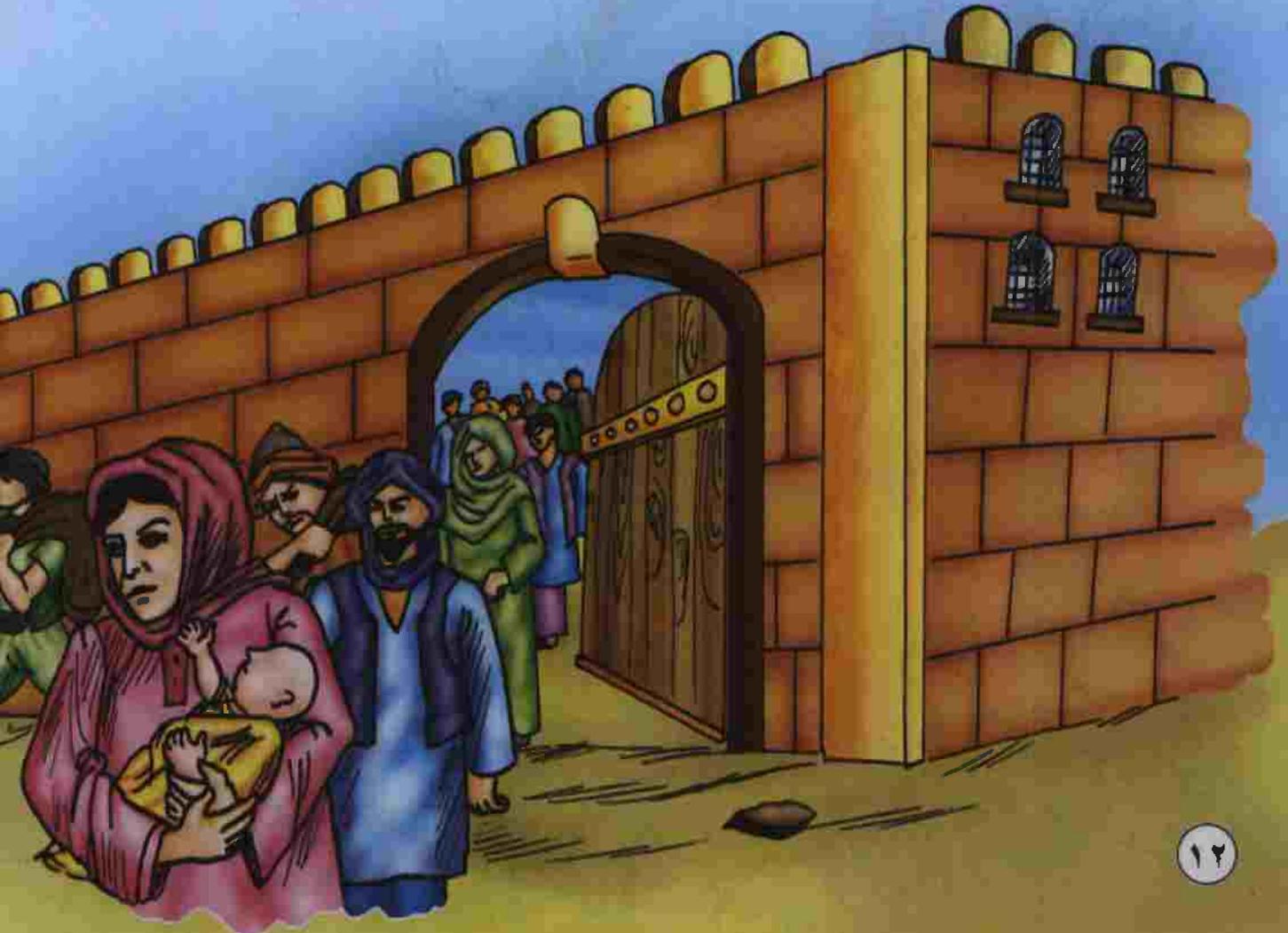
دَوْلَةَ الْمُرَابِطِيِّينَ.



الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي

أَجْمَعَتْ كُتُبُ التَّارِيخِ، أَنَّ هَذَا الْقَائِدَ الْعَظِيمَ أُنْمُوذَجَ عَبْقَرِيًّا فِي النَّبْلِ وَالْمُرُوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ. وَقَدْ شَهِدَ بِأَخْلَاقِهِ الْفَاضِلَةِ أَعْدَاؤُهُ مِنَ الصَّلِيبِيِّينَ، فَضْلًا عَنْ أَصْدِقَائِهِ الْمُقْرَبِينَ، وَكُلٌّ مَن تَنَاوَلَ سِيرَتَهُ الْعَطِرَةَ مِنَ الْمُتَرْجِمِينَ وَالْمُؤَرِّخِينَ.. إِنَّهَا شَخْصِيَّةٌ عِمْلَاقَةٌ.

هَلْ تَعْرِفُ - صَدِيقِي - أَنَّ النَّاصِرَ "صَلَاحَ الدِّينِ" كَانَ مِنَ الْمُمَكِنِ أَلَا يَظْهَرُ، وَلَا يَكُونُ لَهُ ذِكْرٌ أَضْلًا؟ ذَلِكَ أَنَّ وَالِدَهُ نَجْمَ الدِّينِ أَيُّوبَ، كَادَ يَقْضِي عَلَيْهِ بِالسَّيْفِ، وَهُوَ لَا يَزَالُ طِفْلًا؛ فَقَدْ تَشَاءَمَ مِنْ مَوْلِدِهِ؛ لِأَنَّ الْيَوْمَ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ صَلَاحُ الدِّينِ، وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ سَنَةِ ٥٣٢هـ، بِقَلْعَةِ تَكْرِيتَ، كَانَتْ فِيهِ النَّهَائِيَةُ الْمُحْتَوَمَةُ لِإِقَامَتِهِمْ بِهَذِهِ الْقَلْعَةِ؛ إِذْ كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُغَادِرُوهَا مُرْغَمِينَ، فَاضْطُرَّ كُلٌّ مِنَ الْأَبِ "نَجْمِ الدِّينِ أَيُّوبَ"، وَالْعَمِّ "أَسَدِ الدِّينِ شِيرْكُوهُ" أَنْ يَخْرُجَا وَهُمَا فِي قِمَّةِ الْأَسَى وَالْحُزْنِ، وَهَذَا مَا جَعَلَ نَجْمَ الدِّينِ أَيُّوبَ يَظُنُّ فِي وَلِيدِهِ هَذَا الظَّنَّ السَّيِّئَ.



بَيَدَ أَنْ الْبَعْضَ مِنْهُمْ أَشَارَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَمَهَّلَ وَلَا يَفْعَلَ، فَإِنَّهُ عَلَى أَيَّةِ حَالٍ طِفْلٌ لَا ذَنْبَ لَهُ وَلَا جَرِيرَةً، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ، فَلَعَلَّ الْخَيْرَ يَكُونُ عَلَى يَدَيْهِ، وَاسْتَجَابَ نَجْمُ الدِّينِ لِنَصِيحَتِهِمْ. وَتَحَرَّكَتْ جُمُوعُ الْعَائِلَةِ أُسْرَةَ نَجْمِ الدِّينِ وَشَقِيقِهِ أَسَدِ الدِّينِ، وَهُمْ يَحْمِلُونَ أُمَّتَعَتَهُمْ، وَاتَّجَهُوا نَحْوَ "الْمَوْصِلِ"؛ لِيُقِيمُوا عِنْدَ صَدِيقِ قَدِيمٍ يُدْعَى "عِمَادُ الدِّينِ زَنْكِي".

كَانَ عَالَمُنَا الْإِسْلَامِيُّ فِي بِلَادِ الْمَشْرِقِ يَمُوجُ بِالْفِتَنِ الدَّاخِلِيَّةِ، وَيَحَارِبُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَاسْتَحْوَذَ كُلُّ وَالٍ مِنَ الْوَلَاةِ عَلَى مَا تَحْتَ وَلايَتِهِ، وَجَعَلَهَا دُوَيْلَتَهُ، يُدَافِعُ عَنْهَا، وَيَتَحَيَّنُ الْفُرْصَ لِيَسْطُو عَلَى مَنْ حَوْلَهُ.. وَيَنْتَرِعُ الْأَجْزَاءَ مِنْ أَرْضِهِمْ، وَيَضُمُّهَا إِلَى أَرْضِهِ؛ وَلَا يَعْنيهِ أَنْ تَتَمَرَّقَ دَوْلَةُ الْإِسْلَامِ وَتَضْعَفَ.

وَالَّذِي دَفَعَهُمْ إِلَى ذَلِكَ هُوَ حَالَةُ الضَّعْفِ وَالْهَوَانِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْهَا الْخِلَافَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ، مِمَّا أَفْقَدَهَا هَيْبَتَهَا، وَجَعَلَهَا مَطْمَعًا لِلْأَعْدَاءِ الْمُتَرَبِّصِينَ، وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بِلَادِ الْإِفْرَنْجِ يَحْمِلُونَ شِعَارَهُمُ الْمُقَدَّسَ "الصَّلِيبَ"، وَيَخْدُوهُمْ الْأَمَلُ فِي غَزْوِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْإِسْتِيْلَاءِ عَلَى خَيْرَاتِهِمْ، وَقَتْلِ أُنْبِيَائِهِمْ، وَالْقَضَاءِ عَلَى دِينِهِمْ، وَانْتِرَاعِ الْقُدْسِ الشَّرِيفِ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ.

وَتَمَّ لَهُمْ مَا أَرَادُوا، وَصَارَتِ الْقُدْسُ فِي حَوْزَتِهِمْ، وَابْتَلَعُوا الْكَثِيرَ مِنَ الْبِلَادِ الْمَجَاوِرَةِ، وَبِكُلِّ أَسْفٍ، فَإِنَّ حُكَّامَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَافُوا عَلَى مُلْكِهِمْ، فَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَذْهَبُ إِلَى هَوْلَاءِ الْغَزَاةِ فَيَتَوَدَّدُ إِلَيْهِمْ، وَيَطْلُبُ مِنْهُمْ الْعَوْنَ وَالسَّدَادَ وَالْحِمَايَةَ، وَيَسْتَعِينُونَ بِهِمْ عَلَى ضَرْبِ إِخْوَانِهِمْ نَظِيرِ أَمْوَالِ طَائِلَةٍ يَقُومُونَ بِدَفْعِهَا إِلَيْهِمْ.

نَعَمْ، هَذِهِ صُورَةٌ سَرِيعَةٌ لِلْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَقَيَّدَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْإِسْلَامِ بَطْلًا فِدًّا، وَمُجَاهِدًا عَظِيمًا، هُوَ "عِمَادُ الدِّينِ زَنْكِي"؛ لِيَعْمَلَ عَلَى رَأْبِ الصَّدْعِ، وَتَوْحِيدِ الصِّفِّ. كَانَ ذَلِكَ هُوَ هَدَفُهُ الْأَوَّلُ؛ لِأَنَّ النَّصْرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ لَا يُمَكِّنُ أَبَدًا أَنْ يَأْتِيَ فِي ظِلِّ التَّفَرُّقِ وَالتَّمَرُّقِ وَالتَّشْرُدْمِ الَّذِي أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ.

وَقَدْ انْتَقَلَتِ الرَّايَةُ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى الْبَطْلِ الثَّانِي "نُورِ الدِّينِ مَحْمُودٍ"، وَالَّذِي كَانَ لَهُ أَبْلَغُ الْأَثْرِ فِي تَوْحِيدِ مُعْظَمِ الْبِلَادِ، وَالْعَمَلِ عَلَى مُقَاتِلَةِ الْأَعْدَاءِ؛ فَسَارَ عَلَى دَرْبِ أَبِيهِ "عِمَادِ الدِّينِ".

كَانَ نَجْمُ الدِّينِ أَيُّوبَ، وَأَخُوهُ أَسَدُ الدِّينِ شِيرْكُوهُ، قَدْ اطْمَأَنَّنُوا إِلَى وُجُودِهِمْ عِنْدَ عِمَادِ
الدِّينِ زَنْكِي، وَاطْمَأَنَّ هُوَ أَيْضًا إِلَيْهِمْ، وَتَأَكَّدَ لَهُ أَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ أَهْلًا لِلثِّقَةِ؛ فَبَالَغَ فِي إِكْرَامِهِمْ،
وَعَمِلَ عَلَى تَقْرِيْبِهِمْ، وَجَعَلَهُمْ مَوْضِعَ ثِقَتِهِ وَاعْتِمَادِهِ.

وَهَكَذَا تَرَبَّى "صَلَاحُ الدِّينِ"، وَعَاشَ هُوَ وَعَائِلَتُهُ الْكَرِيمَةَ فِي كَنْفِ "عِمَادِ الدِّينِ زَنْكِي"؛ فَتَرَبَّى
عَلَى الْفُرُوسِيَّةِ، وَأَحَبَّ الْجِهَادَ. وَقَدْ شَاهَدَ بِأَمِّ عَيْنِيهِ كَيْفَ يَتِمُّ التَّخْطِيطُ لِلْمَعَارِكِ، فَضَلًّا عَنِ
دُرُوسِ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ الَّتِي كَانَ يَحْضُرُهَا فِي الْمَسْجِدِ، وَتَأْسِيسِهِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ
عَلَى أَيْدِي كِبَارِ الْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، حَتَّى صَارَ عَالِمًا بِأُصُولِ الشَّرِيعَةِ، فَحَقَّهَا فِي أُمُورِ الدِّينِ.
وَلَمَّا تَوَلَّى "نُورُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ" الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِ وَالِدِهِ، اسْتَنَدَ إِلَى "الْأَيُّوبِيِّينَ"، وَأَسْنَدَ إِلَيْهِمْ
الْكَثِيرَ مِنَ الْأَعْمَالِ، فَكَانُوا يَبْذُلُونَ قَصَارَى جَهْدِهِمْ مِنْ أَجْلِ خِدْمَةِ الْإِسْلَامِ، وَلِيُظَلُّوا دَائِمًا
مَوْضِعَ الثِّقَةِ وَالتَّقْدِيرِ.

وَهَذَا مَا دَفَعَ بِالسُّلْطَانِ "نُورِ الدِّينِ مُحَمَّدٍ" أَنْ يُقَرَّبَ "صَلَاحُ الدِّينِ"، وَيُوصِي بِهِ خَيْرًا، وَيَتَفَقَّدَ
أَحْوَالَهُ، حَتَّى عَيْنُهُ كَبِيرًا لِلشَّرْطَةِ - بِرَغْمِ صِغَرِ سِنِّهِ - لِمَا وَجَدَ فِيهِ مِنْ ذَكَاءٍ مُنْقَطِعِ النَّظِيرِ.
وَقَدْ اسْتَطَاعَ "صَلَاحُ الدِّينِ" أَنْ يَضْرِبَ عَلَى أَيْدِي اللُّصُوصِ وَقَطَّاعِ الطَّرِيقِ بِيَدٍ مِنْ حَدِيدٍ،
حَتَّى سَادَ الْأَمْنُ وَالْأَمَانُ فِي رُبُوعِ الشَّامِ. وَقَدْ أَحَسَّ "نُورُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ" بِنَظَرَتِهِ الثَّاقِبَةِ أَنَّ هَذَا
الْفَتَى "صَلَاحُ الدِّينِ" سَيَكُونُ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ، وَسَيَأْتِي الْخَيْرُ عَلَى يَدَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

لَمْ تَكُنْ نَظَرَةُ "نُورِ الدِّينِ مُحَمَّدٍ" وَحْدَهَا الَّتِي تُدْرِكُ مَوْهَبَةَ صَلَاحِ الدِّينِ؛ فَعَمَّهُ "أَسَدُ الدِّينِ
شِيرْكُوهُ" كَانَ مُتَأَكِّدًا مِنْ ذَلِكَ، وَهَذَا مَا جَعَلَهُ يُصِرُّ عَلَى أَخْذِهِ مَعَهُ ضِمْنَ الْجَيْشِ الدَّاهِبِ
إِلَى مِصْرَ، وَبِرَغْمِ رَفْضِ الشَّابِّ صَلَاحِ الدِّينِ الدَّهَابِ، إِلَّا أَنَّ الْعَمَّ "شِيرْكُوهُ" تَمَسَّكَ بِهِ، وَأَصْرَّ عَلَى
مُصَاحَبَتِهِ. وَبَعْدَ مُحَاوَلَاتٍ مُضْنِيَّةٍ لِإِقْنَاعِهِ خَرَجَ صَلَاحُ الدِّينِ زَاهِدًا فِي الدَّهَابِ، إِلَّا أَنَّهُ أَصْبَحَ
بَعْدَ سَنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ سُلْطَانًا لِمِصْرَ، ثُمَّ مَلِكًا لِمِصْرَ وَالشَّامِ، لِيَتَحَقَّقَ الْحُلْمُ الْأَعْظَمُ بِخُرُوجِ
الصَّلِيبِيِّينَ مِنَ الْقُدْسِ وَمِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ، فِيمَا عَدَا الْقَلِيلَ مِنْهَا.

نَعَمْ، ذَهَبَ "صَلَاحُ الدِّينِ" بِصُحْبَةِ عَمِّهِ "أَسَدِ الدِّينِ شِيرْكُوهُ" إِلَى مِصْرَ، فَاتَّجَهَ شِيرْكُوهُ
إِلَى غَزَّةَ، فَالْقَاهِرَةَ، بَيْنَمَا اتَّجَهَ صَلَاحُ الدِّينِ بِالْكَتِيبَةِ الَّتِي يَقُودُهَا نَحْوُ الْإِسْكَندَرِيَّةِ. وَلَجَّ صَلَاحُ
الدِّينِ الْإِسْكَندَرِيَّةَ مَشْدُودَ الْقَامَةِ، مَرْفُوعَ الْهَامَةِ، وَسَجَلًا لَمَلًا، وَتَرْتِيبًا أَهْلًا
وَلَمْ يَلْبَثْ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى اخْتِيرَ وَزِيرًا لِلْخَلِيفَةِ الْفَاطِمِيِّ "الْعَاضِدِ بِالْأُحَدِّ"، فَقَدَّصَى

عَلَى كُلِّ الْفِتْنِ وَالْقَلَاقِلِ الدَّاخِلِيَّةِ، وَعَمِلَ جَاهِدًا عَلَى وَحْدَةِ الْمُسْلِمِينَ.
وَلَمَّا مَاتَ الْخَلِيفَةُ الْعَاضِدُ صَارَ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِصَلَاحِ الدِّينِ، وَأَصْبَحَ هُوَ سُلْطَانَ مِصْرَ.
وَأَمَّا عَنِ تَحْرِيرِهِ لِلْقُدْسِ الشَّرِيفِ، فَتَعَالَوْا مَعًا لِنَسْتَمِعَ إِلَى أَحَدِ شُهَدَاءِ الْعِيَانِ، الَّذِينَ حَضَرُوا
تِلْكَ الْمَعْرَكَةَ، إِنَّهُ الْقَاضِي الْفَقِيهُ "بِهَاءُ الدِّينِ بْنِ شَدَادٍ" صَاحِبُ كِتَابِ "السِّيَرِ الصَّلَاحِيَّةِ".
يَقُولُ ابْنُ شَدَادٍ: "لَمَّا تَسَلَّمَ صَلَاحُ الدِّينِ عَسْقلَانَ وَالْأَمَاكِينَ الْمُحِيطَةَ بِالْقُدْسِ، شَمَرَ عَنِ سَاقِ
الْجِدِّ وَالْاجْتِهَادِ فِي قَصْدِ الْقُدْسِ الْمُبَارَكِ، وَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ الْعَسَاكِرُ الَّتِي كَانَتْ مُتَفَرِّقَةً فِي
السَّاحِلِ، فَسَارَ نَحْوَهُ مُعْتَمِدًا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى.. وَكَانَ نُزُولُهُ عَلَيْهِ فِي يَوْمِ الْأَحَدِ، الْخَامِسِ عَشَرَ
مِنْ رَجَبٍ، سَنَةِ ٥٨٣ هـ. وَكَانَ نُزُولُهُ بِالْجَانِبِ الشَّمَالِيِّ، فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، الْعِشْرِينَ مِنْ رَجَبٍ.
رَأَى أَعْدَاءُ اللَّهِ الصَّلِيبِيِّونَ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْأَمْرِ وَعَلَامَاتُ فَتْحِ الْمَدِينَةِ وَظُهُورِ الْمُسْلِمِينَ
عَلَيْهِمْ. فَاسْتَكَانُوا وَأَخْلَدُوا إِلَى طَلَبِ الْأَمَانِ. وَكَانَ تَسَلُّمُهُ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ
مِنْ رَجَبٍ، وَنَصَرَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ عَلَى يَدِهِ نَصْرًا عَزِيزًا.



الملك المظفر سيف الدين قطز

إِنَّهَا إِرَادَةُ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - الَّذِي هَيَأُ الْأَقْدَارَ لِلْأَمِيرِ الطَّمُوحِ "قُطُزَ" لِأَنَّهُ يُضْبِحُ سُلْطَانًا لِمِصْرَ. هَا هِيَ أَحْلَامُهُ تَتَحَقَّقُ، وَيَتَحَقَّقُ بِهَا حُلْمُ مِصْرَ وَالْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ جَمْعَاءَ؛ فَبَعْدَ أَنْ كَانَ عَبْدًا مَمْلُوكًا، يُبَاعُ وَيُشْتَرَى، صَارَ الْآنَ مَلِكًا مُتَوَجِّجًا، وَعَلَيْهِ أَنْ يُؤَكِّدَ عَهْدَهُ الَّذِي قَطَعَهُ عَلَى نَفْسِهِ أَمَامَ اللَّهِ، وَأَمَامَ شَيْخِهِ "عِزِّ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ"، إِذَا صَارَ يَوْمًا مَا سُلْطَانًا لِمِصْرَ، أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ، وَأَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حَتَّى يَطْرُدَ التَّتَارَ خَارِجَ دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَسْحَقَهُمْ وَيَقْضِي عَلَيْهِمْ بِإِذْنِ اللَّهِ.



وَهَلْ يَنْسَى "قَطْرٌ" - وَهُوَ سَلِيلُ الْمُلُوكِ - مَا فَعَلَهُ هَؤُلَاءِ الطَّوَاغِيتُ بِأَهْلِهِ، حِينَ حَاوَلُوا الدَّفَاعَ عَنِ بَيْضَةِ الْإِسْلَامِ، فَوَقَّفَهُمُ اللَّهُ لِلنَّصْرِ عَلَيْهِمْ، غَيْرَ أَنَّ أَحَدًا مِنْ مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُحَاوِلْ أَنْ يَمُدَّ لَهُمْ يَدَ الْمَسَاعِدَةِ، لِيَجِدُوا أَنْفُسَهُمْ وَحَدَّهُمْ فِي مُوَاجَهَةِ هَؤُلَاءِ الْجَبَابِرَةِ، وَأَنْتَهَى بِهِمُ الْأَمْرُ أَنْ تَمَرَّقَ شَمْلُهُمْ، وَضَاعَ مُلْكُهُمْ، وَأَصْبَحُوا أَثَرًا بَعْدَ عَيْنٍ!

أَمَّا هُوَ فَقَدْ صَارَ مَمْلُوكًا يُبَاعُ فِي الْأَسْوَاقِ، وَالْأَثْرِيَاءُ يَتَهَاوَتُونَ عَلَى شِرَائِهِ، وَيَدْفَعُونَ فِيهِ مَبَالِغَ طَائِلَةٍ، رَغْمَ أَنْ أَحَدًا لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ أُصُولِهِ الْمَلَكِيَّةِ، وَأَنَّ اسْمَهُ الْأَصْلِيَّ: "مَحْمُودُ ابْنُ مَمْدُودٍ"، وَأَنَّهُ ابْنُ شَقِيقَةِ الْمَلِكِ جَلَالِ الدِّينِ بْنِ خَوَارِزْمِ شَاهِ، صَاحِبِ إِقْلِيمِ كَرْمَانَ فِي جَنُوبِي إِيرَانَ.

وَلَمْ يَذْكَرِ التَّارِيخُ أَحَدًا مِنْ تِلْكَ الْأُسْرَةِ إِلَّا هَذَا الْعُلَامَ الصَّغِيرَ، وَالَّذِي أَصْبَحَ فِيمَا بَعْدَ أَحَدِ مَمَالِيكِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ "نَجْمِ الدِّينِ أَيُّوبَ" بِالْقَاهِرَةِ.. يَعْمَلُ تَحْتَ إِمْرَةِ سَيِّدِهِ "عِزِّ الدِّينِ أَبِيكَ"، أَحَدِ كِبَارِ الْمَمَالِيكِ، وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ مِنَ الْمَلِكِ الصَّالِحِ.

وَقَدْ أَحَبَّهُ الْأَمِيرُ أَبِيكَ وَجَعَلَهُ مِنْ أَشَدِّ الْمُقَرَّبِينَ لَهُ، وَأَمِينِ سِرِّهِ؛ لِمَا تَمَيَّزَ بِهِ مِنْ شَجَاعَةٍ، وَذَكَاءٍ، وَثَبَلِ الْأَخْلَاقِ، وَعُمُقِ الدِّينِ.

مِنْ هُنَا كَانَتْ الْأَقْدَارُ تَتَهَيَّأُ لِهَذَا الْمَمْلُوكِ الطَّمُوحِ لِأَنْ يُصْبِحَ سُلْطَانًا لِمِصْرَ.. مَاتَ الْمَلِكُ الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّينِ أَيُّوبَ، لِتَتَوَلَّى عَرْشَ السُّلْطَانَةِ زَوْجَتُهُ "شَجْرَةُ الدَّرِّ".

وَتَمُرُّ الْأَيَّامُ سَرِيعَةً مُتَلَاحِقَةً، وَكَأَنَّهَا تَتَسَابَقُ لِتَمَكِّينِ قَطْرَ مِنْ اِعْتِلَاءِ الْعَرْشِ؛ فَقَدْ صَارَ سَيِّدُهُ "الْأَمِيرُ عِزُّ الدِّينِ أَبِيكَ" زَوْجًا لِلْسُّلْطَانَةِ "شَجْرَةَ الدَّرِّ"، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُدْ يَجْلِسُ عَلَى الْعَرْشِ، وَيَتِمَكَّنُ مِنْ فَرَضِ إِزَادَتِهِ، حَتَّى كَانَتْ نَهَائِتُهُ الْمُحْتَوَمَةَ عَلَى يَدِ زَوْجَتِهِ السُّلْطَانَةِ.

وَتَلْتَمِهُ شَجْرَةُ الدَّرِّ عَلَى يَدِ "أُمِّ عَلِيٍّ"، الزَّوْجَةِ الْأُولَى لِلْأَمِيرِ أَبِيكَ، فَيَتَوَلَّى ابْنُهَا "الْمَلِكُ الْمُتَنَصِّرُ نُورُ الدِّينِ بْنُ عِزِّ الدِّينِ أَبِيكَ"، وَهُوَ لَا يَزَالُ حَدِثًا صَغِيرًا لَا يَفْقَهُ مَعْنَى السُّلْطَانَةِ.

وَهَكَذَا كَانَتْ الْأُمُورُ تَجْرِي فِي طَرِيقِهَا الْمُحْتَوَمِ لِإِصْبِيرِ قَطْرَ - الْمَسْئُولِ الْأَوَّلِ عَنِ السُّلْطَانِ الصَّغِيرِ - هُوَ الْحَاكِمُ الْفِعْلِيُّ لِلْبِلَادِ.

وَمَا أَنْ صَارَ قُطْرُ هُوَ السُّلْطَانُ، حَتَّى بَدَلَ قَصَارَى جَهْدِهِ لِنَشْرِ الْعَدْلِ، وَدَفَعَ الظُّلْمَ، وَإِعَادَةَ
الْحَقُوقِ لِأَصْحَابِهَا؛ فَتَحَقَّقَ عَلَى يَدَيْهِ أَمْنُ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، ثُمَّ جَاءَتِ اللَّحْظَةُ الْحَاسِمَةُ، نَعَمْ، هَا
قَدْ جَاءَتِ اللَّحْظَةُ الْحَاسِمَةُ الَّتِي أَنْتَظَرَهَا قُطْرُ طَوِيلًا.. إِنَّهَا لَحْظَةُ الْمَوَاجَهَةِ وَنَيْلِ الثَّأْرِ، وَالْإِنْتِقَامِ
لِشَرَفِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ.

كَانَتِ الْأَنْبَاءُ تَتَوَالَى إِلَى مَسَامِعِ السُّلْطَانِ "سَيْفِ الدِّينِ قُطْرُ"، بِتَحْرُكِ جِيُوشِ التَّتَارِ وَامْتِدَّ
زَخْفُهُمِ الْأَثَمِ إِلَى بِلَادِ الْجَزِيرَةِ، وَاسْتَوْلُوا عَلَى حَلَبَ فِي سَنَةِ ٦٥٨ هـ، وَوَصَلُوا إِلَى دِمَشْقَ، وَظَلُّوا
يُوَاصِلُونَ زَخْفَهُمُ الشَّيْطَانِيَّ الْبَغِيضَ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى نَابِلِسَ، ثُمَّ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْيَمَنُ،
وَالْحِجَازُ، وَمِصْرُ.

حَاوَلَ السُّلْطَانُ الْجَدِيدُ "قُطْرُ" أَنْ يَتَعَامَلَ مَعَ الْأُمُورِ بِشَيْءٍ مِنَ الْحِكْمَةِ، فَأَرْسَلَ إِلَى خُطْبَاءِ
الْمَسَاجِدِ، وَكِبَارِ الْعُلَمَاءِ، بِأَنْ يُكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ الْجِهَادِ وَقَضَائِلِهِ، وَتَرْذِيدِ السُّورِ وَالْآيَاتِ الَّتِي تَحُثُّ
عَلَى الْجِهَادِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الطَّرِيقُ الْوَحِيدُ لِلنَّجَاةِ، وَبَدَأَ السُّلْطَانُ يَسْتَعِدُّ لِمُوَاجَهَةِ التَّتَارِ فِي نَفْسِ
الْعَامِ الَّذِي تَوَلَّى فِيهِ أُمُورَ السُّلْطَنَةِ.

اجْتَمَعَ السُّلْطَانُ سَيْفُ الدِّينِ قُطْرُ بِكِبَارِ الْأَمْرَاءِ بِقَلْعَةِ الْجَبَلِ، بِحُضُورِ فَضِيلَةَ الشَّيْخِ عَزِّ
الدِّينِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ، وَكِبَارِ أَهْلِ الرَّأْيِ مِنَ الْمَفْهَاءِ وَالْقُضَاةِ، وَكَانُوا يَتَشَاوَرُونَ فِي كَيْفِيَّةِ
التَّصَدِّي لِجَحَافِلِ التَّتَارِ.

تَحَوَّلَتْ مِصْرُ إِلَى وَرْشَةٍ عَمَلٍ كَبِيرَةٍ؛ مِنْ أَجْلِ تَجْهِيزِ الْجَيْشِ وَإِمْدَادِهِ بِكُلِّ مَا يَلْزَمُ مِنَ الْعِتَادِ
وَصَارَ النَّاسُ فِي الْمَسَاجِدِ، يَتَلَقَّوْنَ الْمَوَاعِظَ وَالْخُطَبَ بِقُلُوبِهِمِ الْمَفْتُوحَةِ، فَتَسْرِي فِي أَجْسَادِهِمْ
الْقُوَّةُ وَالْعَزِيمَةُ، فَصَارَ الْجَوُّ الْعَامُّ فِي مِصْرَ تَسْوُدُهُ رُوحُ الْإِيمَانِ.

لَمْ يَعْذُ يُسْمَعُ فِي حَدِيثِ النَّاسِ سِوَى سِيْرَةِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَكَيْفَ كَانُوا يُجَاهِدُونَ
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَأَصْبَحَ الْجَيْشُ مُهَيَّأً لِلْمَعْرَكَةِ بَعْدَ تَدْرِيْبَاتٍ شَاقَّةٍ وَمُضْنِيَّةٍ.
نَعَمْ، لَقَدْ تَوَلَّى سَيْفُ الدِّينِ قُطْرُ عَرْشَ مِصْرَ فِي ظُرُوفِ شَدِيدَةِ الْقَسْوَةِ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ سِوَاهُ
يَمْلِكُ الْقُدْرَةَ عَلَى تَوَلِّيِ الْمَسْئُورِيَّةِ الْخَطِيرَةِ إِلَّا هُوَ.

فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَصَلَتْ رِسَالَةٌ شَدِيدَةُ اللَّهْجَةِ إِلَى قُطْرُ مِنْ زَعِيمِ التَّتَارِ
"هُولَاكُو"، بِتَوَعُّدِهِ فِيهَا.. وَمَا أَنْ فَرَّغَ السُّلْطَانُ "سَيْفُ الدِّينِ قُطْرُ" أَمْرَ
بِخُرُوجِ الْجَيْشِ لِقِتَالِ التَّتَارِ.

خَرَجَ قُطْرُ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ، الْخَامِسَ عَشَرَ مِنْ شَعْبَانَ ٦٥٨ هـ، بِجَمِيعِ عَسْكَرِ مِصْرَ، وَمَنْ اَنْصَمَ
 اِلَيْهِمْ مِنْ عَسَاكِرِ الشَّامِ وَالْعَرَبِ وَالتُّرْكَمَانَ وَغَيْرِهِمْ، وَقَدْ خَرَجُوا جَمِيعًا مِنْ قَلْعَةِ الْجَبَلِ،
 ثُمَّ خَطَبَ قُطْرُ خُطْبَةً عَظِيمَةً وَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَانْطَلَقَ الْجَيْشُ الْمُؤْمِنُ
 الْمُوْحَدُ كَالْاِعْصَارِ الْمَدْمَرِ، اَوْ الرِّيحِ الْعَاصِفِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي مَكَانٍ يُسَمَّى "عَيْنَ جَالُوتَ"، يَوْمَ
 الْجُمُعَةِ، الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ ٦٥٨ هـ، وَجَمِيعُ الْأُمَّةِ الْاِسْلَامِيَّةِ تَدْعُو اللَّهَ
 مِنْ قُلُوبِهَا أَنْ يَنْصُرَ الْاِسْلَامَ. كَانَ صَوْتُ قُطْرُ يُجَلْجَلُ بِكُلِّ قُوَّةٍ: "اللَّهُ أَكْبَرُ.. وَالْاِسْلَامُ!"

فَمَا يَزْدَادُ جُيُوشَ الْمُسْلِمِينَ اِلَّا تَزْدِيدَ "اللَّهُ أَكْبَرُ.. وَالْاِسْلَامُ!"

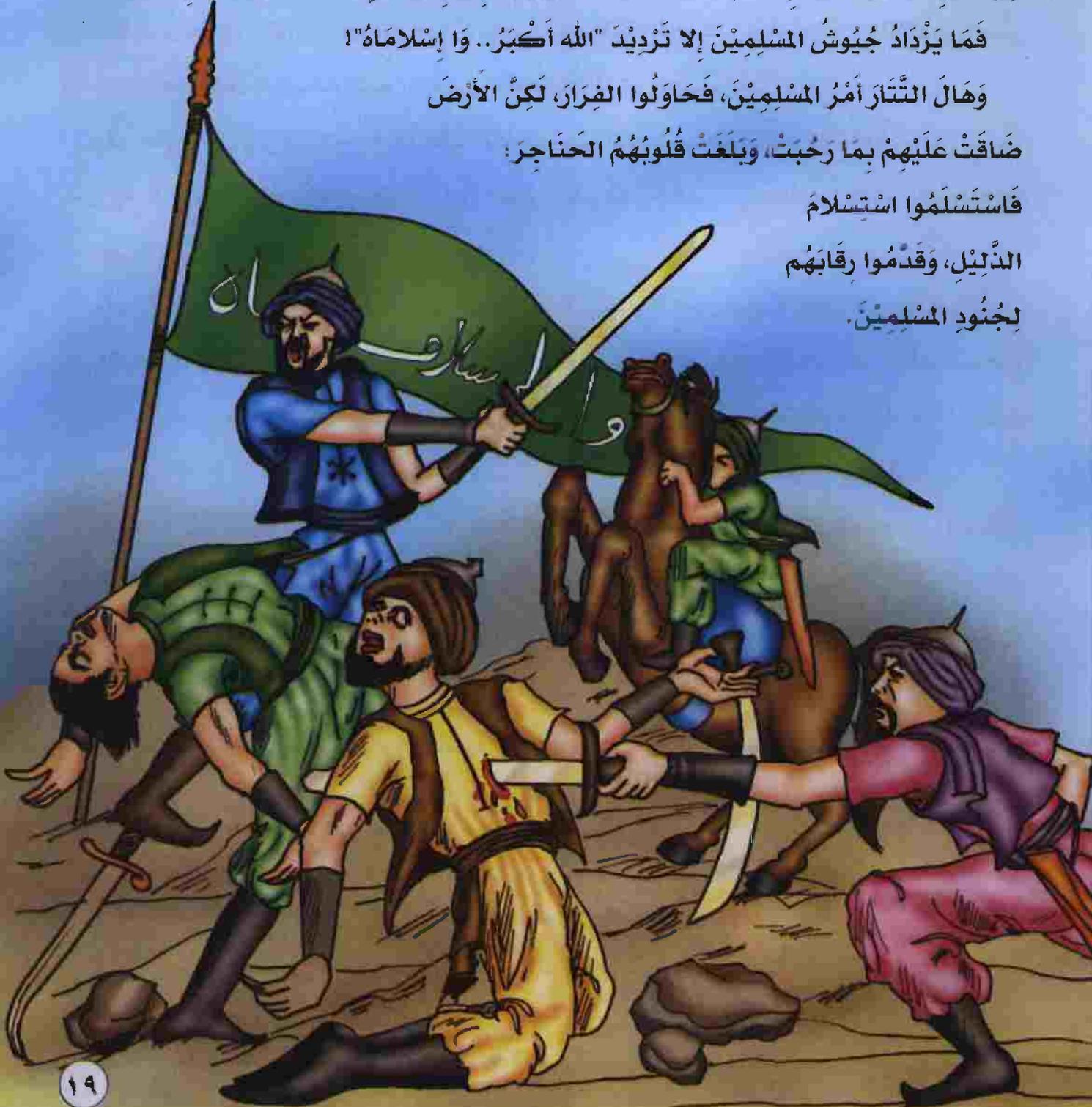
وَهَالَ التَّتَارَ اَمْرَ الْمُسْلِمِينَ، فَحَاوَلُوا الْفِرَارَ، لَكِنَّ الْأَرْضَ

ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ بِمَا رَحِبَتْ، وَبَلَغَتْ قُلُوبُهُمُ الْحَنَاجِرَ:

فَاسْتَسَلَمُوا اسْتِسْلَامَ

الدَّيْلِيلِ، وَقَدَّمُوا رِقَابَهُمْ

لِجُنُودِ الْمُسْلِمِينَ.



الأسد الهصور الظاهر ببيرس

كَانَتْ عَلَامَاتُ النَّصْرِ تَرْتَسِمُ عَلَى كُلِّ وُجُوهِ، وَفَزَحَاتُ عَارِمَةٍ تَجْتَاحُ الْقُلُوبَ، وَخَرَجَ النَّاسُ مِنْ دَاخِلِ بِيُوتِهِمْ يَتَعَانِقُونَ، وَيَتَبَادَلُونَ التَّهَانِي لِهَذَا النَّصْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَحْرَزَهُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى جُيُوشِ التَّتَارِ.

فَبَعْدَ أَنْ كَانَ التَّتَارُ يَتِيهُونَ عُجْبًا لِانْتِصَارَاتِهِمُ الْمُتَوَالِيَةِ عَلَى مُعْظَمِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى بَاتَتْ عِنْدَهُمْ عَقِيدَةٌ رَاسِخَةٌ أَنَّهُمُ الْجَيْشُ الْأَسْطُورَةُ الَّذِي لَا يُقْهَرُ أَبَدًا.

وَقَدْ حَاوَلُوا أَنْ يُرَوِّجُوا لِتِلْكَ الدَّعَايَةِ الْكَاذِبَةِ حَتَّى انْكَشَفَتْ حَقِيقَتُهُمْ، وَهَذَا مَا تَحَقَّقَ بِالْفِعْلِ عَلَى يَدِ الْجُيُوشِ الْمُؤْمِنَةِ الَّتِي خَرَجَتْ مِنْ مِصْرَ، عَلَى يَدِ الْقَائِدِ "سَيْفِ الدِّينِ قُطْرُ"، فِي مَوْقِعَتِهِ الشَّهِيرَةِ "عَيْنِ جَالُوتَ".

وَلَقَدْ تَجَلَّى نَجْمٌ سَاطِعٌ طَالَمَا أَظْهَرَ مِنَ الْقُوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ، فَكَانَ سَبَبًا أَكِيدًا مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ إِنَّهُ الْفَارِسُ "رُكْنُ الدِّينِ بِيْبِرْسُ الْبِنْدِقْدَارِيُّ"؛ فَقَدْ كَانَ فِي مُقَدِّمَةِ الْجَيْشِ، وَقَدْ اسْتَطَاعَ بِمَقْدَرَتِهِ الْفَذَّةِ، وَمَوَاهِبِهِ الْعَسْكَرِيَّةِ، أَنْ يَهْزِمَ طَلَائِعَ التَّتَارِ وَيَسْحَقَهُمْ، كَمَا لَمْ يُخَالِطْ إِحْسَاسَهُ لِلْحِظَّةِ أَنَّهُ أَمَامَ جُيُوشِ التَّتَارِ الْمُخِيفَةِ، وَالَّتِي طَالَمَا دَمَّرَتْ وَخَرَّبَتْ فِي دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ.

لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَيَّدَ لِلْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ سُلْطَانًا عَظِيمًا، لَمْ يَأْخُذْهُ الْيَأْسُ أَوْ الْقُنُوطُ. وَقَدْ وَقَفَ بِجَانِبِهِ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الصَّنَادِيدِ، عَلَى رَأْسِهِمْ جَمِيعًا هَذَا الْبَطَلُ الْهَمَامُ "بِيْبِرْسُ".

كَانَ لِبِيْبِرْسِ مَوَاقِفٌ سَابِقَةٌ تَدُلُّ عَلَى مَدَى شَجَاعَتِهِ وَصَلَابَتِهِ، حِينَ اجْتَازَ الصَّلِيبِيِّونَ بِلَادَ مِصْرَ، وَاخْتَلَوْا مَدِينَةَ دِمِشْقَ بِقِيَادَةِ مَلِيكِهِمْ "لُؤَيْسَ التَّاسِعِ"، ثُمَّ دَخَلُوا الْمَنْصُورَةَ.

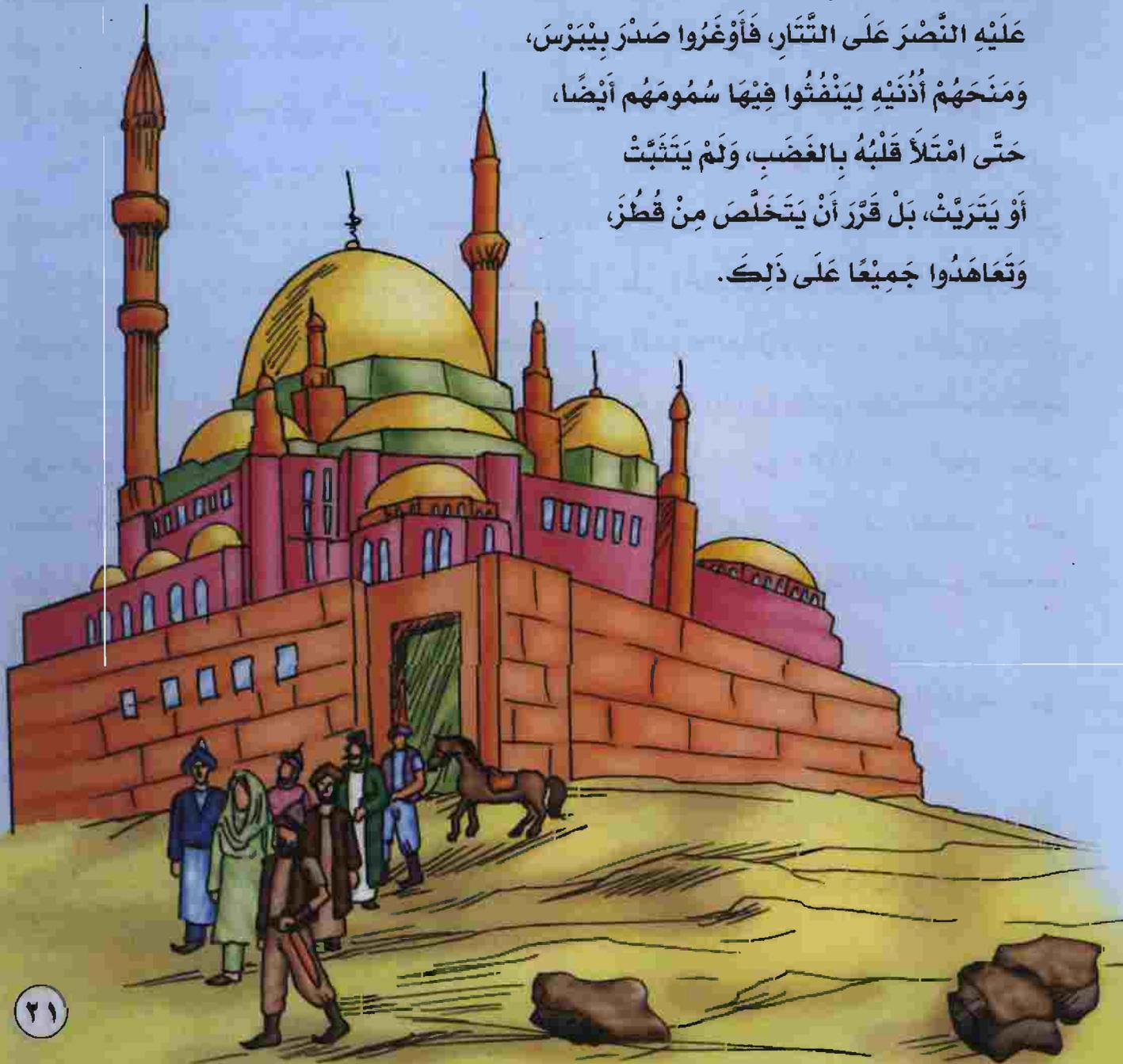
كَانَ بِيْبِرْسُ أَحَدَ الْمَغَاوِرِ الَّذِينَ تَصَدَّقُوا لَهُمْ، وَأَبْلَوْا بِلَاءَ حَسَنًا، حَتَّى سَحَقُوهُمْ وَأَسْرَوْا مَلِكَهُمْ.

"بِيْبِرْسُ" وُلِدَ فِي صَحْرَاءِ الْقَلْجَاقِ، سَنَةَ ٦٢٠ هـ، ١٢٢٣ م، وَوَقَعَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الْمَغُولِ، وَهُوَ لَا يَزَالُ صَغِيرًا لَمْ يَبْلُغِ الْحُلُمَ بَعْدًا، وَبِيعَ فِي أَسْوَاقِ الرَّقِيقِ بِدِمَشْقِ، فَاشْتَرَاهُ "الْأَمِيرُ عَلَاءُ الدِّينِ الْبِنْدِقْدَارِيُّ"، فَنَسَبَ إِلَيْهِ، وَأَصْبَحَ يُدْعَى "بِيْبِرْسَ الْبِنْدِقْدَارِي".

وَلَمَّا ظَهَرَتْ نَبَاهَتُهُ، وَتَبَلُّورَتْ شَخْصِيَّتُهُ، انْتَقَلَ لِلخِدْمَةِ ضَمَّنَ مَمَالِيكَ الْمَلِكِ الصَّالِحِ نَجْمِ الدِّينِ أَيُوبَ، فَأَعْتَقَهُ وَجَعَلَهُ مِنْ خَوَاصِّ مَمَالِيكِهِ.

وَمِنْ وَقْتِهَا تَرَقَّى بِنَبْرَسَ، وَصَارَ مِنْ كِبَارِ الْمَالِيكِ ذَوِي الطُّمُوحِ الْفَائِقِ، وَالْهَمَّةِ الْعَالِيَةِ.
 وَلَمَّا تَجَلَّتْ عِبْقَرِيَّتُهُ الْعَسْكَرِيَّةُ فِي مَعْرَكَةِ "عَيْنِ جَالُوتَ"، انْتَهَرَ مُكَافَأَةً تَلِيْقُ بِهِ؛ بِاِعْتِبَارِهِ
 أَحَدَ أَسْبَابِ النَّصْرِ، بَيَدَ أَنَّ السُّلْطَانَ "سَيْفَ الدِّينِ قُطْرُ" لَمْ يَمْنَحْهُ شَيْئًا عَلَى الْإِطْلَاقِ، فَقَدْ
 أَرْجَا مُكَافَأَتَهُ لِحَيْنِ الْعُودَةِ إِلَى قَلْعَةِ الْجَبَلِ، حَيْثُ قَرَّرَ "قُطْرُ" فِي نَفْسِهِ أَنْ يَتْرَكَ لَهُ عَرْشَ مِصْرَ،
 وَيَتَفَرَّغَ لِلطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ. وَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَهَا مُفَاجَأَةً لِبِنْبَرَسَ وَلِبَقِيَّةِ الْمَالِيكِ، لَكِنَّ بِنْبَرَسَ
 لَمْ يَكُنْ يَدْرِي بِمَا يَدُورُ بِخُلْدِ صَدِيقِهِ وَسُلْطَانِهِ الْمُظْفَرِ قُطْرُ، فَقَدْ ظَنَّ أَنَّ السُّلْطَانَ اسْتَكْتَرَّ
 عَلَيْهِ مَدِينَةَ حَلَبَ، وَالتِّي كَانَ قَدْ وَعَدَهُ بِهَا مِنْ قَبْلُ، فَرَاخَ الشَّيْطَانُ يَفُوحُ سَمَّهُ فِي رَأْسِهِ.
 وَمَا زَادَ الطَّيْنَ بِلَّةً، هُوَ لِئِنَّ الثَّلَاةَ مِنَ الْمَالِيكِ الذِّينَ كَانُوا يَخْقِدُونَ عَلَى قُطْرُ، وَيَسْتَكْتَرُونَ

عَلَيْهِ النَّصْرَ عَلَى التَّتَارِ، فَأَوْعَرُوا صَدْرَ بِنْبَرَسَ،
 وَمَنْحَهُمْ أُذُنِيهِ لِيَنْفُثُوا فِيهَا سُمُومَهُمْ أَيْضًا،
 حَتَّى امْتَلَأَ قَلْبُهُ بِالْغَضَبِ، وَلَمْ يَتَثَبَّتْ
 أَوْ يَتَرَيَّثْ، بَلْ قَرَّرَ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ قُطْرُ،
 وَتَعَاهَدُوا جَمِيعًا عَلَى ذَلِكَ.



اسْتَغَلَ الْحَاقِدُونَ مِنَ الْمَالِيكِ ابْتِعَادَ قُطْرَ عَنْ جَيْشِهِ، فَتَجَمَّعُوا عَلَيْهِ فَجَاءَهُ، وَنَزَلُوا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ، لَكِنَّ قُوَاتِ السُّلْطَانِ أَسْرَعَتْ إِلَيْهِ عِنْدَمَا اشْتَمَّت رَائِحَةَ الْغَدْرِ، وَاسْتُلُوا سُيُوفَهُمْ لِيُدَافِعُوا عَنْهُ، غَيْرَ أَنَّهُمْ وَصَلُوا مُتَأَخِّرِينَ، وَكَانَ السُّلْطَانُ الْعَظِيمُ قُطْرَ يُعَالِجُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، وَأَشَارَ إِلَيْهِمْ قَائِلًا: "اتْرُكُوا بِيْبِرْسَ، فَقَدْ كُنْتُ أَوْدُ أَنْ أَمْنَحَهُ مُكَافَأَةً عَظِيمَةً تَلِيْقُ بِهِ كَقَائِدِ عَظِيمٍ؛ لِأَنَّهُ جَدِيرٌ بِهَا حَقًّا، وَلَسَوْفَ يَتَحَقَّقُ الْخَيْرُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - عَلَى يَدَيْهِ، إِنِّي أُعْلِنُ أَمَامَكُمْ جَمِيعًا أَنَّنِي قَدْ عَصَوْتُ عَنْ بِيْبِرْسَ وَمَنْ مَعَهُ، وَأَوْصِيَكُمْ بِسُلْطَانِكُمْ بِبِيْبِرْسَ خَيْرًا، اسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا.. أَمَا أَنْتَ يَا بِيْبِرْسَ، أَيُّهَا السُّلْطَانُ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَعْمَلَ لِحِدْمَةِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَتُجَاهِدَ الْأَعْدَاءَ، وَتَنْشُرَ الْحَقَّ وَالْعَدْلَ فِي سَمَاءِ الْإِسْلَامِ.

كَانَ بِيْبِرْسُ يُحَدِّقُ فِي صَدِيقِهِ غَيْرَ مُصَدِّقٍ مَا يَسْمَعُ، وَالذَّمُوعُ تَجَمَّدَتْ فِي عَيْنَيْهِ، بَيْنَمَا صَرَخَاتُ مَرْوَعَةَ مَكْتُومَةٌ كَانَتْ تَتَأَجَّجُ بِدَاخِلِهِ.. كَيْفَ طَوَّعَتْ لِي نَفْسِي قَتْلَ صَدِيقِي؟
 سَامِحْنِي يَا أَعَزَّ صَدِيقِي! أَرْجُوكَ سَامِحْنِي! ابْتَسَمَ قُطْرُ وَهُوَ يَتَأَمَّلُ وَجْهَهُ، وَلَمْ يَنْطِقْ!
 وَمَاتَ قُطْرُ، لِيُعْتَلِي بِيْبِرْسُ عَرْشَ مِصْرَ، وَيُصْبِحَ "الظَّاهِرَ بِيْبِرْسَ"، مَا أَنْ جَلَسَ بِيْبِرْسُ عَلَى عَرْشِ السُّلْطَنَةِ، حَتَّى وَجَدَ كَلِمَاتِ صَدِيقِهِ قُطْرَ لَا يَزَالُ صِدَاهَا يَتَرَدَّدُ فِي أُذُنَيْهِ، فَعَزَمَ عَلَى تَنْفِيذِ وَصَايَاهُ، فَبَدَأَ بِإِسْقَاطِ الْمُكُوسِ وَالضَّرَائِبِ، وَعَمِلَ عَلَى تَخْفِيفِ الْأَعْبَاءِ عَنِ الشَّعْبِ، وَأَطْلَقَ الْمُحْبُوسِينَ مِنَ السُّجُونِ، وَقَدَّمَ كُلَّ مَا فِي وَسْعِهِ؛ لِيَنْتَشِرَ الْحَقُّ وَالْعَدْلُ وَالرِّخَاءُ فِي كُلِّ الْأَرْجَاءِ.
 وَنَجَحَ السُّلْطَانُ بِيْبِرْسُ فِي إِعَادَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مَرَّةً أُخْرَى، وَالتِّي كَانَتْ قَدْ سَقَطَتْ مَعَ سُقُوطِ بَغْدَادِ فِي يَدِ هُولاكُو، فِي ٤ مِنْ صَفَرِ ٦٥٦ هـ، ١٠ مِنْ فَبْرَايِرِ ١٢٥٨ م، فَاسْتَطَاعَ بِيْبِرْسُ اسْتِقْدَامَ أَحَدِ النَّاجِينَ مِنْ أُسْرَةِ الْعَبَّاسِيِّينَ، وَهُوَ "أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ"، وَعَقَدَ فِي الْقَلْعَةِ مَجْلِسَ عَامٍ، فِي ٩ مِنَ الْمُحَرَّمِ ٦٦١ هـ، ٢٢ مِنْ نُوْفَمْبَرِ ١٢٦٢ م، حَضَرَهُ كِبَارُ رِجَالِ الدَّوْلَةِ وَقَاضِي الْقَضَاةِ؛ لِيَقْرَأَ نَسَبَ الْخَلِيفَةِ عَلَى الْحَاضِرِينَ، وَيَتِمَّ تَسْحِيلُهُ.

وَهَكَذَا تَأَكَّدَ حُكْمُ بِيْبِرْسَ، وَأَخَذَتْ دَوْلَةُ الْمَالِيكِ صِبْغَتَهَا الشَّرْعِيَّةَ، بِمُبَارَكَةِ الْخَلِيفَةِ "أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ، الْمُلَقَّبُ بِالْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ".

عَمِلَ الظَّاهِرُ بِيْبِرْسُ عَلَى الْإِرْتِقَاءِ بِجُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ، عَمَلًا بِقَوْلِ اللَّهِ - تَعَالَى -: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وَقَامَ بِسَدِّ الثُّغُورِ، وَتَحْصِينِ الْقِلَاعِ وَالْحُصُونِ، وَمَدَّهَا بِالطَّعَامِ الْوَفِيرِ وَالذَّخِيرَةِ.

وَقَدْ تَحَالَفَ السُّلْطَانُ الظَّاهِرُ بِيْبِرْسُ مَعَ "بِرْكَهَ خَان"، زَعِيمِ القَبِيلَةِ الذَّهَبِيَّةِ المَغُولِيَّةِ،
وَتَعَاوَنَا مَعًا عَلَى مُحَارَبَةِ التَّتَارِ، عَدُوَّهُمُ المَشْتَرِكِ، وَالْعَدُوَّ الأوَّلِ لِدِيَارِ الإِسْلَامِ.
وَاسْتَطَاعَ الظَّاهِرُ بِيْبِرْسُ أَنْ يُلْحِقَ بِالصِّلِيبِيِّينَ هَزَائِمَ مُنْكَرَةً، وَأَنْ يَفْتَحَ قَيْسَارِيَّةً، وَأَرْسُوفَ،
وَقَلْعَةَ صَفَدٍ، وَيَافَا، ثُمَّ كَانَتْ قِمَّةَ انْتِصَارَاتِهِ وَأَعْظَمُهَا عَلَى الإِطْلَاقِ، حِينَ فَتَحَ أَنْطَاكِيَّةً،
فِي هَمِنْ رَمَضَانَ ٦٦٦هـ، مَآيُو ١٢٦٨م.

لَمْ يَتَوَقَّفِ الظَّاهِرُ بِيْبِرْسُ لِحِظَّةٍ وَاحِدَةٍ عَنِ مُجَاهَدَةِ المَغُولِ، فَكَانَتْ انْتِصَارَاتُهُ المُبْهَرَةَ المُتَوَالِيَةَ
عَلَى هَوَلاءِ الأَشْرَارِ حَتَّى فَرَّقَ جَمْعَهُمْ، وَمَزَّقَ شَمْلَهُمْ، وَلَمْ تَقَمْ لَهُمْ قَائِمَةٌ تُذَكِّرُ بَعْدَ ذَلِكَ.
وَلِأَنَّ السُّلْطَانَ المَعْظَمَ "الظَّاهِرَ بِيْبِرْسَ" كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ العِلْمَ هُوَ أَسَاسُ كُلِّ نَجَاحٍ، فَقَدْ عَمِلَ
عَلَى بِنَاءِ المَسَاجِدِ وَتَعْمِيرِهَا، وَإِقَامَةِ المَدَارِسِ، عَلَى أَحَدِثِ النُّظُمِ العِلْمِيَّةِ المُتَطَوِّرَةِ، حَتَّى صَارَ
عَضْرُ الظَّاهِرِ بِيْبِرْسِ - بِحَقِّ - مِنْ أَزْهَى عُصُورِ المَمَالِيكِ.

وَلَمْ يَنْسَ لِحِظَّةٍ وَاحِدَةٍ وَصِيَّةَ صَدِيقِهِ قُطْرُز، بِنَشْرِ الحَقِّ وَالعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَأَقَامَ دَارَ العَدْلِ،
سَنَةَ ٦٦١هـ، ١٢٦٣م، وَخَصَّصَ أَيَّامًا بَعَيْنَهَا لِيَجْلِسَ بِنَفْسِهِ لِلْفَضْلِ فِي القَضَايَا الكَبِيرَةِ، وَمِنْ
حَوْلِهِ قُضَاةُ المَذَاهِبِ الأَرْبَعَةِ، وَكِبَارُ المَوْظُفِينِ.

وَكَانَ بِيْبِرْسُ يَزْدَادُ حَمَاسًا عَلَى تَحْقِيقِ
العَدْلِ، وَرَفْعِ الظُّلْمِ، وَتَأْمِينِ البِلَادِ،
فَكَانَ - بِحَقِّ - العَضْرَ الذَّهَبِيَّ
لِدَوْلَةِ المَمَالِيكِ.



اختبر معلوماتك

● تجلت عبقرية الظاهر بيبرس في محاربته للتتار أثناء معركة...

مرج دابق
عين جالوت
حطين



● استطاع سيف الدين قطز أن يطرد من بلاد الشام...

الصلبيين
التتار
الروم



● استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يحرر الأقصى من أيدي...

الصلبيين
التتار
الفرس



● استطاع القائد طارق بن زياد أن يتحرك بجيشه ليعبر البحر المتوسط إلى...

الأندلس
المغرب
فرنسا

